

كلمة العدد

بقلم : الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة

مجلس التعاون ..



الضرورات التاريخية والأفاق المستقبلية



ان اى حديث عن مجلس التعاون الخليجى يشير بداية الى حقيقة هامة من حقائق التاريخ فى منطقة الخليج ، هى ان التعاون كان ومايزال احد الاسس الراسخة التى قامت وتقوم عليها العلاقات بين الوحدات السياسية فى المنطقة . وهو تعاون ظل قائما تحت السطح او فوق السطح فى كل الظروف سواء بظواهرها السلبية او مظاهرها الايجابية التى تنابت على المنطقة فى فصل أو آخر من فصول التاريخ . فالتعاون هو فى معناه المجرد علاقة . والعلاقة - أى علاقة - لها معطيات . وهذه المعطيات بوفرتها او ندرتها هى التى تحدد نوع هذه العلاقة قوة وضعفا . توقفا واستمرارا . وبمنظرة عابرة على معطيات العلاقة التى تربط بين الوحدات السياسية فى المنطقة حكاما وشعوبا ، يجد الباحث ودون عناء كبير انها معطيات لا تتوافر ولم تتوافر فى اى منطقة أخرى من مناطق العالم الفسيح فجميع العناصر البشرية التى تشكلت منها الوحدات السياسية على الساحل خرجت كلها من قلب شبه

الجزيرة العربية في موجات متتابعة نتيجة بعض الظروف المناخية والبيئية الطارئة . وهى موجات أخذت على الدوام شكل هجرات جماعية تخرج فيها المجموعة البشرية كقبيلة أو بطن أو فخذ تنقل معها كل مقومات حياتها وتحفظ طوال رحلتها الطويلة بكل روابطها وعلاقاتها وعاداتها واسلوب حياتها . ثم هى تقيم فى بيئتها الجديدة مجتمعا متماسكا قد تتغير ظروفه البيئية ولكن ظروفه الاجتماعية - فى جوهرها - لا تتغير ولا تتبدل . وإذا كانت الهجرات البشرية ظاهرة إنسانية شهداها العالم فى مختلف الارحاء . إلا ان الهجرات البشرية فى منطقة الخليج تحتفظ دائما بخصوصية لم تتكرر .

هذه الخصوصية تتمثل فى ان المجموعات المهاجرة وهى فى معظم الحالات فروع او أجزاء من قبائل كبيرة ظلت محافظة على العلاقات والصلات بينها وبين القبيلة الام فى المركز من ناحية ، وبينها وبين الاجزاء الاخرى من القبيلة التى هاجرت من المركز الى مكان آخر على الساحل من ناحية اخرى ، مما خلق ومازال دروبا من الاتصالات المستمرة بين كل هذه المجموعات والافراد أشبه بالشبكة المتصلة الخيوط والروابط فإذا أضفنا الى ذلك القاعدة البدوية التى تفضل الاصحار الى الاقارب بدنا من أولاد العم نجد ان علاقات النسب المتبادل بين الاقارب المنتشرين على الساحة قد أضافت بعدا جديدا الى دعم هذه العلاقة بين المركز والاطراف وبين الاطراف بعضها والبعض الآخر .

تأتى بعد ذلك خصوصية اخرى هى الدين الواحد الذى تدين به كل المجموعات على الساحة فهو الى جانب مايوفره لهذه المجموعات من رباط واحد يجمعهم كلهم أفرادا وجماعات على إله واحد وكتاب واحد ونبي واحد .

أضاف وباستمرار مزيدا من الربط بين هذه المجموعات التى حرصت وتحرص على زيارة الاماكن المقدسة فى الحج الذى هو فرض من فروض الدين ، هذا الحج الذى لم يكن مجرد زيارة للاماكن المقدسة فى المركز وانما كان موسما كبيرا تلتقى فيه المجموعات القادمة من كل مكان على الساحل مع اصولهم فى قلب شبه الجزيرة العربية وهو لقاء دائم ومستمر يتكرر كل عام ويحول دون تفكك الاواصر او تحلل الروابط او ضعف العلاقات .

هذه العلاقة الخاصة ، جعلت من التعاون في المنطقة حقيقة تاريخية ضاربة الجذور ، قوية الاسس ، راسخة القواعد ، حتى قبل ان تأخذ شكل تنظيم سياسي من نوع او آخر .

فالتنظيمات السياسية او الاتحادات السياسية التي تنشأ في عالمنا المعاصر ، انما تنشأ لخلق نوع مطلوب من التعاون بين بعض الوحدات السياسية . ولكن الوضع في منطقة الخليج معكوس . فالمعطيات التي عرضتها فيما سبق إنما تجعل من أى تنظيم سياسى او اتحاد سياسى نتيجة او انعكاسا او تتويجا او ترسيخا لتعاون قائم بالفعل وهو تعاون قديم قائم بالفعل وليس مجرد تعاون طارئ فرضته بعض الظروف المستجدة على الساحة . فالتعاون في الحالة الاولى سبب وهو في الحالة الثانية نتيجة لضرورات تاريخية توافرت بشكل ليس له مثيل . وهنا تظهر قضية هامة ، يحلو للبعض ان يذهبوا بها بعيدا . ويضعوا لها الكثير من الفروض ، ويخرجوا منها بالكثير من النتائج التي تتفق وبعض الاغراض في نفس يعقوب .

هذه القضية التي تثار بين وقت وآخر أرى من المهم ان نعرض لها بصراحة وموضوعية ، وهى وإن خرجت بنا عن سياق الحديث إلا انها تمثل استطرادا لابد منه راجين ان تكون تحت نظر الكثيرين من المؤرخين والمحللين السياسيين وبعضهم من داخل المنطقة وأغلبهم من خارجها .

هذه القضية تقول إذا كان التعاون أصيلا فلماذا الخلافات الحادة التي تظهر بين بعض الوحدات السياسية والتي تلتهب فيها المواقف أحيانا الى مايقرب من درجة الاشتعال بسبب الحدود؟

وانا اتقدم هنا ببعض رؤوس الاقلام التي ارجو ان تكون محل اهتمام قادتنا ومفكرينا وان تكون اساس حملة شاملة تحشد لها الاقلام والصحافة في خليجنا العربي لخلق جو جديد من الثقة ولارساء قواعد جديدة لما يجب ان تكون عليه العلاقات بين الاخوة الذين يجمعهم النسب والدين والذين يؤمنون باله واحد ونبي واحد وكتاب واحد . والذين يعيشون على ساحة واحدة تواجه خطرا واحدا وتتطلع الى مستقبل واحد .

واول هذه التصورات هو العمل للقضاء على كل العوامل المسببة للخلاف وتأتي مشكلة الحدود الجغرافية في مقدمة هذه العوامل وفي

هذا الصدد فان قادتنا امامهم مهمة كبيرة وخطيرة . هي العمل الدؤوب المتواصل للقضاء لمرة واحدة واخيرة على مشكلة الحدود فليس من المعقول في بلدان تتحدث عن التعاون وعن الوحدة المصرية التي تجمع بين مواطنيها والتي تتحدث ليل نهار عن ضرورة الغاء الجوازات والجمارك وفتح الابواب كلها امام جميع المواطنين ليس من المعقول ان يطمع الاخ في اخيه وان يطالب بقطعة من الارض هي تحت ادارته وتصرفه من زمن طويل مع ان اراضى هذه البلدان كلها في واقع الامر اراضى الجميع اخوة واشقاء واذا كانت بعض الخطوط ترسم مجالات التحرك للدول فان المتوقع ان يكون ذلك داعيا للتنافس في مجال البناء والاعمار والتطور والتعاون لا سببا للفرقة والتنافر . ان السبب الرئيسي لاي مشكلة هو موضوع الحدود ولو ان دول مجلس التعاون تبنت القرار الذي اتخذته الدول الافريقية باحترام حدود كل دولة كانت تحت تصرفها عندما رحل عنها الاستعمار ونالت استقلالها وانتسبت للامم المتحدة لحلت كل المشاكل ولو ان دول الخليج اتخذت ذلك القرار واحترمت تلك الحدود لأراحت واستراحت كما وجدنا اوروبا التي خاضت حربين عالميتين مدمرتين تضع حدا للاسباب الكامنة وراء هاتين الحربين من خلال تعاونها واتفاقها في مؤتمر الامن والتعاون الاوروبي حيث ارسى الاسس ومبادئ السلام والوثام في وثيقة هلسنكى لعام ١٩٧٥ وميثاق باريس لعام ١٩٩٠ . وذلك طبقا لمبادئ ومقاصد الامم المتحدة ومن بين تلك المبادئ الالتزام بالسيادة والاستقلال والسلامة الإقليمية للدول وحرمة حدودها .

ونعود الآن لمواصلة الحديث عن جذور التعاون الضاربة في تاريخ وتربة المنطقة . ان اى مراقب يلاحظ ان التحليلات السياسية والدراسات التاريخية التى تدور حول المنطقة إنما تتناول دائما منطقة الخليج ككل قبل ان تتناول الوحدات السياسية القائمة فيه . فاصطلاح الخليج هو عنوان كبير فى التعامل مع المنطقة سواء بالنسبة للمجموعات او الافراد ، ان اى انسان أجنبي راحل الى المنطقة عندما تسأله الى اين يذهب فإنه يقول لك انه راحل الى الخليج قبل ان يذكر لك الى اى وحدة سياسية معينة اختارها فى الخليج . كل الاستراتيجيات التى تضعها مختلف القوى الخارجية انما توضع على اساس التعامل مع الخليج كوحدة قبل ان تفصل كاجزاء للتعامل مع وحداته السياسية

كل المؤلفات حتى التي تخصص لدولة او اخرى بالمنطقة تبدأ بدراسة الخليج أولا كإطار هام للحديث عن هذه الدولة . كل هذا يرسخ الواقع الموجود بالفعل وهو التشابه او التطابق في كل الظروف التي تجمع بين الوحدات السياسية بالمنطقة . والمستقرىء للتاريخ سوف يجد نماذج كثيرة وعديدة تؤكد ان التعامل الخارجى مع المنطقة انما كان يتم دائما على هذا الاساس .

لقد شاء القدر ان تتوافر لهذه المنطقة ثلاثة عناصر هامة لاتتوافر في اى مكان بالعالم .

ففى الجزيرة العربية المقدسات الاسلامية الرئيسية الممثلة فى الكعبة المشرفة والمسجد النبوى الشريف والمزارات الهامة التي تتجه اليها قلوب وعقول وأرواح المسلمين في كل ارجاء الارض . والمنطقة بموقعها الجغرافى تمثل قلب العالم فهى نقطة الوصل بين الشرق والغرب ، تتحكم فى أهم المضايق على وجه الارض . وقد كانت كذلك منذ ولد التاريخ فى الحضارات القديمة ومازالت حتى اليوم ، يأتى بعد ذلك العنصر الثالث وهو ان هذه الارض تفجرت بها ينابيع الذهب الاسود الذى يعتبر عصب الحياة فى العالم كله ، وان جوف هذه الارض يحتضن أضخم احتياطى عالمى للبترول مما جعل بيد هذه المنطقة المفاتيح التي تسير دولاب الحياة فى العالم كله .

هذه المقومات الثلاثة كانت ومازالت تشكل الاساس الاستراتيجى للمنطقة ككل من ناحية والاساس الاستراتيجى لاطماع القوى الخارجية تجاهها كوحدة واحدة من ناحية أخرى . والامثلة على ذلك كثيرة نكتفى منها بنماذج ثلاثة توضح مانذهب اليه .

فعندما مد البرتغاليون أنظارهم الى الخليج معتمدين على ماتوافر لهم من معلومات قدمها فاسكو دى جاما . كان الحافز اقتصاديا ولكن الدافع كان دينيا وهو مهاجمة قلب العالم الاسلامى ، مكة المكرمة وبمعنى آخر استئناف الحروب الصليبية فى هجمة جديدة تأخذ مسارا جديدا . وقد دفعت البرتغال بقائدها إفونسو دا البوكيرك سنة ١٥٠٦م وقد كشف البوكيرك عن نواياه فى رسالته الى شاه فارس سنة ١٥٠٩م وجاء فيها : إننى أقدر لك احترامك للمسيحيين فى بلادك وأعرض عليك الاسطول والجند والاسلحة لاستخدامها ضد قلاع الترك واذا اردت ان تنقض على بلاد العرب او تهاجم مكة فستجدنى بجانبك فى البحر الاحمر

امام جده او في عدن او البصرة او القطيف وسيجدني الشاه بجانبه على امتداد الساحل الفارسي وسأنفذ له مايريد .

وكانت اعلانات البوكيرك على الدوام انه سوف يهدم الكعبة وينكل بالمسلمين وقد استحال عليه الهدف الاول ولكنه نجح في الثاني الى حد بعيد فقد تعرض المسلمون في ساحل عمان لأشد أنواع التنكيل مثل قطع الأذان والانوف والقتل والسبى بل ان تعليماته لسفنه كانت باغراق اى سفينة تحمل مسلمين دون اى انذار ودون ادنى اعتبار للاصول المتعارف عليها وكم أغرقت سفنه من سفن لم تكن تحمل سوى الحجاج المسلمين .

سيطر البرتغاليون على الخليج وباركت كل اوربا اعمالهم الهمجية باسم الصليب واستمر وجودهم حتى سنة ١٦٢٢م وان كان وجودا قلقا تعرضوا فيه بدورهم لمقاومة عنيفة ولمعارك ضارية شاركت فيها كل مناطق الخليج وتبرز هنا ثورة ١٥٢٢م وهى الثورة التى تم ترتيبها للهجوم على البرتغاليين برا وبحرا في ليلة واحدة وفي وقت واحد في كل من مسقط وقريات وصحار والبحرين وهرمز اما كيف تم تنسيق ذلك في زمن لم تكن وسائل الاتصال فيه متطورة او حتى موجودة وانما الذى كان متوافرا هو الوسائل البدائية ، فإن ذلك يحتاج الى دراسة مستفيضة وان كانت دلالته هامة الى ابعد حد وهى استشعار الجميع ان الجرح واحد وان العدو واحد وان التنسيق والتعاون في مواجهة الخطر ضرورة لايدل عنها وانها سبيل النصر وقد كان .

لقد كان لموقع منطقة الخليج المتوسط بين الشرق والغرب وتحكمها في حلقة الوصل بين أوروبا والشرق الأقصى إعتبار هام في نظر القوى الكبرى . هذا الموقع وإن كان يمثل نعمة أنعم الله بها على المنطقة . إلا انه كان في بعض الاوقات نقمة عانت من اثارها كل الوحدات السياسية الموجودة في هذا الموقع الاستراتيجى الهام . في البداية ظهرت الحاجة للسيطرة على مداخل البحر الاحمر والخليج خاصة بعد افتتاح قناة السويس ولتأمين طريق التجارة الهام والخطير بين أوروبا ومستعمراتها في الهند . في المنطقة انتشرت مخازن الفحم لتموين السفن المسافرة عبر هذه المسافات الشاسعة . ثم بعد ذلك خزانات الوقود بعد استخدام الطائرات ثم الوكالات الاجنبية ثم الحاميات لتأمين كل ذلك من قوى اخرى طامعة ثم بعد ذلك تحول هذا الموقع الهام الى نقطة

استراتيجية خطيرة ضمن استراتيجية تطويق الامبراطورية العثمانية في الحرب العالمية الاولى والاتحاد السوفيتي طوال سنوات الحرب الباردة . ودون تفصيل قد يجرنا الى حديث متشعب لاينتهى فإن موقع منطقة الخليج ككل كان عنصرا أساسيا ورئيسيا وهاما بالنسبة للقوى الدولية الكبرى . تشكلت على أساسه سياسات واتخذت مواقف وحدثت صدامات وجدت تطورات كانت مظاهرها وآثارها ونتائجها تطل المنطقة ككل لاوحدة سياسية من وحداته دون الاخرى .

ناتى بعد ذلك الى العنصر الثالث وهو البترول فمنذ تفجرت ينابيعه في المنطقة ، ومنذ تم تقدير احتياطياته العملاقة وقد تغير الوضع . فبعد ان كان الخليج نقطة هامة على طريق يصل بين القوى الاستعمارية في الغرب وكنز التوابل في الشرق الاقصى أصبح الخليج هو غاية الرحلة ونهاية طريق يربط بين أوروبا وأمريكا وكنز الذهب الاسود في المنطقة . ومع تطور الصناعة وتقدمها ازدادت اهمية هذه المادة التي اصبحت عصب الحياة في كل العالم . واحدى اهم واخطر المصالح الحيوية للقوى الكبرى . ومرة اخرى عادت تتشكل من جديد السياسات والخطط الاستراتيجية والتحركات الدبلوماسية والاتفاقيات الدولية وبعد ان كانت المنطقة نقطة هامة لتأمين مصالح حيوية عسكرية وتجارية في مناطق اخرى . اصبحت كل النقاط الاستراتيجية الاخرى نقاطا هامة لتأمين المصالح الهامة للغاية في المنطقة .

هذه النماذج التي مررت عليها مرورا عابرا في إشارات سريعة الى ماتوحى اليه وهو كبير جدا ويحتاج الى تفصيل وبسط . إنما أردت بها ان أؤكد على نقطتين هامتين :

الاولى : ان المنطقة بكل وحداتها السياسية قد مثلت وتمثل وحدة عضوية تتشابه كل ظروفها وتتكامل كل مقوماتها السياسية والاستراتيجية في نظر القوى الخارجية التي تتعامل معها بالدرجة الاولى كمنطقة قبل ان تتعامل معها كدول .

الثانية : أن كل هذه المعطيات التاريخية والاجتماعية والجغرافية والاقتصادية والسياسية إنما مثلت طوال التاريخ - ومازالت تمثل وستظل كذلك الى وقت طويل مجموعة من الضرورات التاريخية لإنشاء مجلس التعاون لدول الخليج العربية .

التعاون إذن علاقة ، والعلاقة بين الوحدات السياسية في الخليج علاقة خاصة بمعطيات خاصة . شكلت وتشكل وجدان وتفكير الانسان الخليجي حاكما ومحكوما على مر التاريخ . من هنا جاء إنشاء المجلس استجابة لضرورات تاريخية كما جاءت كل المحاولات قبله . لصب التعاون القائم بالفعل في قالب سياسى وبلورته في شكل مجلس يتيح مرونة اكبر وتنظيما أدق في التعامل مع العالم الخارجى من ناحية . وفي خلق جسور حديثة تربط بين هذه المجموعات بأسلوب يواكب مستجدات العصر من ناحية أخرى .

وانتقل الآن الى الشق الثانى من هذا الحديث وأول ماتجب الإشارة إليه هنا هو ملاحظة منطقية مفادها انه إذا كان العالم كله يتناول المنطقة في حديثه وسياساته ككيان واحد فإن المنطق يقتضى ان نتحدث المنطقة وتعامل مع العالم بلسان واحد وكيان واحد . ومن هذه الحقيقة جاء قيام مجلس التعاون كتنظيم سياسى ، وبدأت لجان المجلس في ممارسة أعمالها في مختلف القطاعات وهنا لابد من الإشارة الى ملاحظة مطروحة على الساحة تقول ان جهود المجلس في تحقيق الوحدة المنشودة تسير ببطء شديد . وهنا كان المفروض ان يطرح سؤال هو هل هذا البطء مفيد ام ضار .

نحن نعلم ان عواطف الانسان العربى دائما مع الوحدة فالاخوة إحساس عربى قديم كامن في الوجدان ونعلم أيضا ان الجماهير ينقصها الصبر في كثير من الاحيان وانها تميل الى ان ترى احلامها حقيقة بين ليلة وضحاها . ولكن التجارب السابقة سواء في المنطقة او العالم العربى او العالم من حولنا أثبتت ان اى تنظيم يأتى من اعلى لا يتوافر له البقاء وان التنسيق الحقيقي والتعاون الحقيقي هو الذي يأتى من اسفل وان مثل هذه الاحلام الكبيرة لا تتحقق بقرار عاطفى يتاجر بحماس الجماهير . وانما تتحقق بوضع الاسس الراسخة القائمة على استكشاف موقع القدم ودراسة الارض والبدء بالتفاصيل الصغيرة ودراسة كل الجوانب وإعدادها على نار هادئة وترتيب الغرف قبل ان تفتح ابوابها على بهو البيت ثم ترتيب بهو البيت قبل فتح ابوابه على الخارج . من هنا فإن البطء ليس نتيجة للكسل او الاهمال او التهاون وانما هو دليل الحرص على توفير كل عناصر النجاح والدوام لهذا الحلم الكبير . لقد بدأ المجلس نشاطه وبدأت اللجان عملها وتحقق الكثير في

مختلف المجالات مثل التنسيق العسكرى والتدريبات المشتركة وحقوق التملك وحقوق الانتقال وتوحيد الاستيراد فى بعض السلع الهامة وغيرها . وقد تصدت قمم المجلس المتتابعة لكثير من المشاكل التى طرأت على الساحة وكم دار داخل الغرف المغلقة من جهود جبارة بذلها القادة لاحتواء مشكلة او اخرى وحلها وهى جهود لايعرفها الكثيرون ولكنها بذلت ونجحت فى كثير من الاحيان وماكان لهذا النجاح ان يتحقق لولا وجود المجلس الذى تم تحت عبائه اللقاء . ودار فى احضانه الحوار وتم فى إطاره مواجهة الخطر والتصدى له . والتغلب عليه .

لم يكن الطريق ممهدا وهو ليس كذلك . فإذا كانت القوى المعادية تنظر الى المنطقة ككيان واحد إلا انها تود ان تتعامل معها المنطقة كأجزاء . من هنا تنتشر على الدرب الكثير من العراقيل والعقبات التى تحتاج على الدوام الى جهد مضاعف لاحتوائها واجتيازها حتى تستمر القافلة فى سيرها وتواصل المسيرة تقدمها . ان الآفاق المستقبلية عريضة لاتقف عند حد . وإذا كانت رحلة الالف ميل تبدأ بخطوة واحدة فإن مجلس التعاون قد قطع فى هذه الرحلة خطوات . وان كنت اعتقد ان التفكير فى المستقبل يجب ان يبدأ بموضوعين على غاية الاهمية فى اعتقادى :

الاول : هو الجيش الخليجى الواحد فقد قدمت لنا حرب الخليج علامات ممايمكن ان تتعرض له المنطقة من أخطار .

أما الموضوع الثانى : فهو السوق الخليجية فكلنا يعرف الآن ان العالم مقبل على حرب الاسواق وهى حرب سلاحها الدولار والمارك والين ونحن نشهد من حولنا تكون الكتل الاقتصادية العملاقة ويخطئ من يظن ان هذه الحرب ستكون أقل وحشية بل انها ستكون أشد ضراوة فالاقتصاد كان دائما السبب الرئيسى خلف ماشاهده العالم من ويلات وفى منطقتنا اليوم بدأ الحديث عن السوق الشرق اوسطية ولنا ان نتساءل أين موقف الخليج من كل هذه التكتلات . خاصة ونحن نرى علامات تدل على ان جميع هذه الكتل تمد بصرها الى المنطقة باعتبارها احد الاسواق الاستهلاكية الضخمة فى العالم . ان المطروح فى هذا السبيل كثير والمأمول فيه اكثر . وأعتقد ان هذا الموضوع هو أهم ما يواجه المجلس فى السنوات القلائل القادمة .

عبد الله بن خالد آل خليفة